الاغتراب في "حديقة الأجوبة" للشاعر حسين القاصد

Alienation in the Garden of Answers by the poet Hussein Al-Qasid

م. د.وسام عبد الحسن عبد الكاظم الساعدي

المديرية العامة للتربية في ميسان

wisamalsady747@gmail.com

M. Dr. Wissam Abdul Hassan Abdul Kadhim Al-Saedi

الملخص:

الاغتراب مصطلح قديم، وظف في أنحاء شتى، فلسفياً وأدبياً ونفسياً، ولقد وجد فيه الشعراء والأدباء مجالاً رحباً للتعبير عما تكابده النفس وتعانيه؛ لأن النص الأدبي هو تجربة عاشتها الذات ضمن محيط نشأت فيه؛ الأمر الذي جعل من الاغتراب ظاهرة متجذرة ومتجددة فيه.

لذلك جاءت هذه الدراسة ضمن هذا المجال في اختيار ظاهرة الاغتراب لدراسة المجموعة الشعرية "حديقة الأجوبة" للشاعر حسين القاصد، والذي يعد من الشعراء المتمردين على النظم والقيود حتى أصبحت جزءاً من يومياته؛ لذا كانت هذه الظاهرة واضحة وجلية في شعره، نتيجة لتأثيرات السلطة والأعراف وقيم المجتمع بعوامله النفسية والديناميكية.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب – حديقة الأجوبة – حسين القاصد

Abstract

Alienation is an old term that has been used in various parts of the world, philosophically, literary, and psychologically. Poets and writers have found a wide scope in it to express

what the soul endures and suffers. Because the literary text is an experience lived by the self within an environment in which it grew up. Which made alienation a deeply rooted and renewed phenomenon. Therefore, this study came within this field in choosing the phenomenon of alienation to study the poetry collection “The Garden of Answers” by the poet Hussein Al-Qasid, who is considered one of the poets who rebelled against systems and restrictions until it became part of his diaries. Therefore, this phenomenon was clear and evident in his poetry, as a result of the influences of authority, customs, .and the values of a society with its psychological and dynamic factors

Keywords: Alienation - The Garden of Answers - Hussein Al-Qasid

مدخل إلى ماهية الاغتراب:

تعدُّ المقاربة النقدية الموضوعاتية من أبرز مقاربات الدرس النقدي في دراسة النصوص الأدبية التي تهدف إلى قراءة الثيمة المعنوية الموروفولوجية للنص الأدبي، عبر عملية التفكيك والإحصاء والتحليل للقيم والسمات التي تتحكم في البنية الموضوعية للنص.

والدراسة النقدية الموضوعاتية تستند غالبا إلى مرجعية فلسفية ابستمولوجية تتمثل في ظاهرية هوسرل ومن جاء بعده أمثال سارتر وباشلار وروسيه، والتي كانت مصنفاتهم الموضوعاتية في الأعمال الأدبية والفنية عبر التركيز على نقاطها الأساسية ومقاربة هذه النقاط مع مستوى التجربة، ليتم من خلالها تحويل ما هو شاعري زئبقي إلى وحدات دلالية موضوعية يستطيع الباحث من خلالها قراءة الأعمال الأدبية والبحث في ثيمتها الداخلية؛ لأن النص الأدبي من وجهة نظر البحث الموضوعاتي هو تجربة عاشتها الذات ضمن محيط نشأت فيه؛ لذلك يكون الإجراء النقدي في دراسة أي نص يتمثل في "فهم تجربة الذات في العالم، بقدر تحققها في النص الأدبي" (غسان بديع، ١٩٩٧، صفحة ٢٤/٢٦٤)، من خلال الوحدة الموضوعية للنص.

وتعدُّ ظاهرة الاغتراب إنسانية قبل أن تكون موضوعاتية؛ لأنها ولدت مع الإنسان ولازمته بكل تفاصيل حياته منذ آدم أصل البشرية في غربته الأولى وهو يسكن الأرض؛ لذلك شكلت هذه الظاهرة أحد الروافد المهمة في تكوين الفكر الإنساني، فضلاً عن أنها لا يخلو منها عمل أدبي يعبر عن الإحساس بالضياع وعدم الانتماء والغربة.

إنّ مفهوم الاغتراب يشير "إلى النحو المشوه للإنسان، حيث يفقد مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والاستمرارية" (علي وطفة، ١٩٩٨، صفحة ٤٧)، من خلال التمرد والانشطار الذاتي وعدم التوافق.

ولقد أصبح الاغتراب سمة مميزة للشعر المعاصر، وذلك بتعدد الظروف والمشكلات والايدولوجيات والكم المعرفي الهائل، الذي تنشأ فيه الكلمات من قبل المجتمع البشري، ليكون "حالة سايكو اجتماعية تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريبا، وبعيداً عن واقعه" (دينكل ميشيل، ١٩٩٨٠، صفحة ٢٠)؛ ليكون الاغتراب في الأدب هو عرض لعدد من المواقف الذاتية والجمعية التي تظهر أوضاعاً اجتماعية تسلب فيها الحريات والمعارف وتفقد فيه القدرة على إنجاز الأهداف.

والاغتراب هو أيضاً عشق التجديد، وتغريب المتلقي، و إبقاؤه منفصلاً حيث يحدث الاندماج الانفعالي بالنص لحظة تشكيله لصورة العالم، نقداً له أو انعكاس لزيادة الوعي على السلوك والهيئة، أو شعور بخلل ما، أو نقص في المقترب يقابله اكتفاء أو زيادة الآخر (الصائغ، ١٩٩٩، صفحة ٣٠٠)، أو زيادة يقابلها نقص الآخر؛ لأن الاغتراب هو أسئلة بلا أجوبة نتيجة لإيحاءات فيزيقية أو ميتافيزيقية، تمثل الخوف والرغبة والزهد والنهم في الحياة الكامن في كل الأزمنة والأمكنة؛ لأنه يمثل المواجهة بين الأنا والآخر، وصراع من أجل حرية البقاء؛ لذا يمكن عدّ الاغتراب بأنه تصدع الذات وانشقاقها نتيجة عدم انسجامها مع عالمها المحيط، حيث تفقد فيه الذات إحساسها بالوجود نتيجة عملية تشويش وتشويه تنتج نمواً غير مكتملا يفقد عناصر ديمومته وانتمائه.

إذن، الاغتراب هو غربة ذاتية نفسية ناتجة عن غربة واقعية تصبح الذات فيها غريبة عن عالمها، من خلال صراع ثلاثة نوازع:

هو الغريزة والرغبة

أنا العقل

الآخر الأعلى المجتمع بقيمه وتقاليده وسلطته

تمثلات الاغتراب في حديقة الأجوبة:

تقوم اغلب الدراسات التي تناولت موضوع الاغتراب في الأدب على تقسيمات عديدة للاغتراب باختلاف حقولها النظرية والميدانية، بتصنيفات تتم وفق الدوافع التي تؤدي إليه، مع الالتفات إلى إن هذه الأنماط تتداخل فيما بينها؛ لكن ردود فعل القارئ هي من تدفع باتجاه نوع جديد يبدو أكثر وضوحاً في النص الشعري وما يعتريه من مظاهر

اغترابية؛ لذا عمدت هذه الدراسة إلى الخروج عن التقسيمات والمعايير المعروفة إلى تقسيمات جديدة في ظاهرة الاغتراب منبثقة من تصنيفات عالم النفس ميلفين سيمان في تصنيفه للاغتراب (إسكندر، ١٩٨٨، صفحة ٢٠٤)؛ إذ ستعتمد هذه الدراسة التقسيمات الآتية:

١- العجز: وهو إحساس الفرد بالعجز وفقدان السيطرة والإحباط في تحقيق ما يصبو إليه.

٢- اللامعيارية: وتعني تشتت المعايير وانهيارها وضياعها والانحراف عن البيئة الطبيعية.

٣- الاغتراب الروحي: وهو غربة الروح عندما تصبح الذات منفصلة عن داخلها وغير منتمية لها، مما يؤدي إلى سوء التكييف والشعور بعد الانتماء.

وبعد قراءة الباحث للمجموعة الشعرية "حديقة الأجوبة"، للكشف عن أهم أنواع الاغتراب التي تضمنتها المجموعة من خلال النص الشعري وما يحيط به من مواقف وظروف، تبين أن العجز هو المهيمن الأكبر، ثم يأتي بعده الاغتراب الروحي، ثم اللامعيارية، لذلك ستكون الدراسة مقسمة على ثلاثة محاور تتضح طياتها عبر نماذج شعرية مختارة.

المحور الأول: العجز

ويتمثل اغتراب العجز في عدم قدرة الذات في اتخاذ القرارات، وعم الرضا والارتياح للقيود المجتمعية؛ لذا تشعر الذات بعدم الانتماء للوضع القائم وعدم التفاعل معه؛ مما ينتج نوعاً من العجز في ممارسة السلوك الطبيعي يتبعه انفصال وضياع لكنه يولد نوعاً من الجمال؛ لأن جمال العمل الأدبي "يتولد من القدرة على تصوير المأساة" (مجاهد، د.ت، صفحة ١٢٩)، ليكون الاغتراب فيه أيقونة العمل الأدبي.

ويعود سبب اختيار ظاهرة الاغتراب لهذه الدراسة لسببين:

الأول: كون الاغتراب متجذر ومتجدد في الشعر والشعراء، لكونهم يمتلكون وعياً بحركة الفكر والمجتمع.

الثاني: إنّ الشاعر حسين القاصد من الشعراء المتمردين على النظم والقيود حتى أصبح جزءاً من يومياته. هذا ما نجده في قوله:

أنا عاجزٌ عمن أحبُّ وعاجزٌ

جرحي جبانٌ خائفٌ من لونهِ

من ألف (ماذا) قد أتيتُ ولم أجد

عمن كرهتُ وكل حقي باطلُ

ماذا يفيد النزفُ جرحٌ عاطلُ

رداً ومازال الجوابُ يسائلُ

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ١٥٢)

تلمس هذه الأبيات عمق الاغتراب والإحساس بالعجز المفعم بمرارة تستبطن الذات وتصور انفعالاتها وخيباتها وانكساراتها، فغربة الشاعر تكمن في العجز العاطفي (أنا عاجز، جرحي جبان، جرح عاطل، الجواب يسائل)، لذا وجد نفسه محاصراً بمجموعة من المتناقضات التي ولدت لديه إحساساً باللاجدوى عبر القيود المفروضة عليه، والتي تشعره بنوع من التمزق يبلغ بالتدرج إلى الاستلاب والضياع والانكسار، وصولاً إلى القوقعة الاغترابية، التي تداخلت فيها انفعالات الإحباط والقلق والحيرة، وهي انفعالات متداخلة يستحضرها الشاعر من أجل الخلاص منها، وأيضاً ليبرز عجزه في علاقة غير متوائمة بينه وبين مجتمعه، وبغربة ذات تقاذفها العجز بما يتملك لتستسلم لقناعات اليأس والإحباط.

هذا النص ختم بتساؤل ساخر وتهكمي (ماذا)، الذي ظل يكبر كلما رأى هذا التناقض العجزي يطبع حياته بصور مشوهة تتقاذفه بالعجز الذي أفقده الثقة بنفسه؛ ليستسلم لقناعات هي وليدة اليأس والحرمان، ويتنفس من خلالها ذلك الجو الخانق.

ويعدُّ الاغتراب من أكثر المفاهيم التصاقاً بطبيعة حياة الإنسان، بل هو من دوافعه الأساسية، لكنه يختلف من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر؛ لأنه يتلوّن بطبيعة الذات وأعراف وسلطة وقيم المجتمع بعوامله النفسية والدينامكيكية، فهو نشيد المكافحين من أجل البقاء بغربتهم الحادة والصعبة، يقول الشاعر:

يجيدون عصرَ الغيم نخباً لصبرهم

يطوفون والتذكار وخز وفجرهم

يفكون أزرار السماء توسلاً

يضحون أطفال الحياء لفعلهم

مآذنهم شاخت وأصواتهم عصا

وتغسلُ وجه الطين بالملحِ أهدبُ

وليدٌ يرى الليلات ذئباً فيغربُ

دعاءاتهم في حضرة الصدق تكذبُ

يتامى وما للفعل أمٌ ولا أبُ

يحركها اللاوعي والحسن أشيبُ

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ٤١)

لقد حمل النص معاني مختلفة ساهمت في اغتراب العجز بمشاعر الفقد والحرمان (يجيدون عصر الغيم، يطوفون والتذكار وخز، يفكون أزرار السماء، الدعاء في حضرة الصدق يكذب، مآذنهم شاخت)، فهذه العبارات حملت معاني الفقد للحياة الطبيعية، مما يبعث صورة للحزن والألم والعجز نتيجة للعلاقة المتوترة التي ربطتهم بمحيطهم الذي انفصل عنهم وتخلوا عنه؛ لذا جاء هذا النص الشعري طافحاً بمرارة الغربة ومعبراً عن العجز بأوضح المشاعر، فهذه الأبيات مشحونة بالعواطف والمشاعر والتجارب المحتدمة التي تنمي الإحساس بالإخفاق والخيبة والفقد نتيجة هزائم قديمة وانكسارات معاصرة، وظف فيها النص البعد الرمزي للمفردات (الغيم، الطين، الفجر، السماء، المآذن) وغيرها من الموجودات التي تصب في دلالة الإحساس بالعجز، لتكون اللغة الشعرية قائمة على أساس وجداني يقوم على التذكر واستدعاء المعاني في كشف الانهيار العجزي وانطماس الوعي وتبدد الرؤية.

كما أن تكرار الأفعال المضارعة (يجيدون، يطوفون، يفكون، يضحون،) قد شكل إيقاعاً للحالة النفسية التي ركزت على غربة العجز والتعبير عن السأم من خلال امتداد واستمرار الأفعال، الأمر الذي شاع إيقاعاً بحركة مثقلة وبطيئة

تمثل الاغتراب بصيغة (يفعلون)، التي تدل على تحقيق إدامة ملحوظة لمشاعر الضيق والعجز، بمشهد اغترابي قائم على خاصية التسوية بالإشارة والتعميم وتبرير القلق.

إنّ الفلسفة التي قسمت العالم إلى مطلق ووجود، على غرار ما فعل أفلاطون من خلال جمهوريته، هي التي أسست للمفهوم الواعي للاغتراب (د.صالح زامل، ٢٠٠٣، صفحة ١٢)؛ لأن البحث عن المثال في مواجهة الواقع هو تعبير يحاول إن يستبدل فيه القاصد الواقع بالمتخيل الاغترابي، الذي يفقد فيه الأمل ليتحوّل إلى رسم صورة للعجز، إذ يقول:

رسموا بلافتة الضياع وجوههم

قوم بسرب الانتظار تبعثروا

مذ ما يقارب ليس يحصى غادروا

شربوا الدروب التائهات وغادرت

هم فتيةٌ قد آمنوا بالخوف فانـ

فالتف حزنٌ بالرؤوس عمائما

قلقاً وعادوا بالنعاس غنائما

جاعوا وكم طبخوا الفراغ ولائما

أحلامهم عش العيون حمائما

قلبت يد التفكير وجهاً لائما

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، الصفحات ١٠٣-١٠٤)

هذه الظروف المتقلبة (رسموا لافتة الضياع، بسرب الانتظار تبعثروا، جاعوا وطبخوا الفراغ، شربوا الدروب التائهات، آمنوا بالخوف) هي من جعلت هذا النص شاهداً للعجز في ظاهرة الاغتراب، حيث الأصوات المقهورة والتناقضات المريرة التي نجد فيها الوجع مدفون في طيات النص الشعري؛ ليرسم لنا لوحة مغرقة في السواد والمأساة للجمع الذي شارف على الانكسار، بعد أن تحطمت أحلامه وآماله على قيود القلق والانتظار، فكان جمع هذه التناقضات وغياب المشاعر والأحلام هو من ولّد هذه الغربة النفسية والمكانية، التي جاءت نتيجة تراكمات معرفية شربتها الذات المغتربة.

كما أن تكرار الأفعال الماضية المسندة إلى واو الجماعة (رسموا، عادوا، غادروا، جاعوا، طبخوا، شربوا، آمنوا)، قد أسهم في تحريك الخطاب الشعري وأكسب النص طاقته الإيقاعية التي تبث الإحساس الاغترابي حركةً ودلالة؛ ليتحول هذا التكرار إلى تطور دلالي وفني يسهم في إشباع غاية النص وبيان دلالته، بارتباطه بدلالة القدم والاستمرار من خلال هذه الأفعال التي توزع فيها الألم بين الأنا الجمعي والموجودات.

ولقد كانت الكثير من نصوص القاصد نشيد للعجز؛ إذ تتجلى فيها غربته إلى جانب ذل المرحلة التي يصورها، فنجده يقول:

وحدي وأعقابي السجائر دولتي

لعجائز الكلمات منتصب عصاً

الشارع المنسي يحفظُ خطوتي

والماكثات على الشفاه جنودُ

نحتار من منا لنا سيقودُ

ورصيف أمسي قي غدي موجودُ

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، الصفحات ١١١-١١٢)

النص يتحدث عن غربة عجز بصورة تشير إلى السقوط في متاهات وانهيارات وتلاشٍ للآمال والأحلام وفقدان الثقة بالواقع؛ مما يؤدي إلى استفحال أزمة العجز أمام قيود الواقع التي زرعت في النفس العدمية واللاجدوى، فعبارات (وحدي وأعقاب السجائر دولتي، لعجائز الكلمات منتصب، الشارع المنسي يحفظ، ورصيف أمسي) كرست الألم والمتاهة في يومياته بفعل محنة العجز والتشتت والضياع؛ لأن توظيف الانفصال عن الواقع جاء بألفاظ وتراكيب خرجت إلى دلالات مجازية، صنع فيها الشاعر لنفسه محراب خاص من التوجس والخيبة عبر إنزال المعنوي منزلة المحسوس؛ ليكسبه حدوداً وأبعاداً مادية تهدف إلى تكثيف الإيحاء، فالتسكع هو قرين التهميش والإقصاء وهما فعلان سياسيان بامتياز.

والنص أيضا لا يخلو من شحنة ايجابية على الرغم مما فيه من عجز واضح، ألا أنه يحمل في طياته روحاً تتطلع إلى فضاء يكسر قيود الواقع وينفلت منها.

والعجز يتسلل إلى النفس تدريجياً، الأمر الذي يجعل الذات تشعر بالوحدة أمام الواقع الجديد، ليكون فيه الشاعر أشبه بالمسافر الذي لا يحمل أمتعة السفر؛ لأنه يجد نفسه غريبا في وطنه، يقول القاصد:

فوق كرسي الفراغ محنطُ

أودى به الترحال كأن حمامةً

بمغارة الأيام خبأ وجهه

حتى جرى التحقيق، بعض أدلةٍ

وله بمسرح ما يودُّ مكانُ

يبستْ فلم يهنأ بها الطيرانُ

وله بخارطة الشفاه لسانُ

للضوء يلبسُ ثوبها النسيانُ

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ٧١)

هذا النص يرصد الانهيارات التي تجعل من الذات عاجزة في عدم قدرتها على التغيير؛ مما يؤدي إلى انتشار الخراب داخل النفس البشرية، عندما تعي أن وعيها هو المقيد وليس جسدها فحسب؛ لذا تنعدم الطمأنينة ويحل محلها الهلع والخوف، ليس من الاغتيال الفكري فحسب بل يتعدى إلى الاغتيال الجسدي عندما يجد الإنسان نفسه محاطاً بمظاهر القمع والانغلاق، الأمر الذي يجعله يحس الاغتراب الذي لم يكن اختيارا وإنما أحساساً بالاختناق وعمق المأساة التي تجرع مرارتها، حتى أصبحت قناعة حتمية وحقيقة إجبارية شوهت العلاقات والرغبات والأفكار، في حالة من الانفصال بين الذات ومحيطها الواقعي، بسبب الضغوط النفسية الناتجة عن غليان وتناقض الأجداث وعبثيتها.

المحور الثاني: الاغتراب الروحي

ويعدُّ الاغتراب الروحي نوعاً من الشعور بالعزلة والوحدة عن المجتمع وقيمه السائدة؛ مما يجعل الفرد يسلك سلوكاً يحس به أنه غير منتمي لمعاير مجتمعه؛ نتيجة عجزه في الانسجام والتواصل.

ولقد توفرت عدة عوامل دفعت القاصد إلى الاغتراب، واغترابه هذا جعله يتخذ موقفاً من قيم المجتمع وتقاليده، وظف فيها كل وسائل العمل الفني رمزاً ولغة وصورة، كما في نص يقول فيه:

وجهي بمفرده تقمص محنتي

فأنا حقيبة تائه ألقى بها

أنا هاجسٌ حطبَ المدينةَ ميتاً

متلوناً حيث المواجع سلسلة

متخلصاً بالتيه مما أثقله

فغدت به العذراءُ بنتاً أرمله

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، الصفحات ٥٤-٥٥)

لقد اجتمعت في هذا النص آلام الروح والجسد؛ مما جعلته يصور الحياة بنظرة ينصت من خلالها إلى أوجاع روحه من دون يعير لأفراحها أي اهتمام، من خلال نسق خاص في الكتابة يقوم على مخاطبة الذات ومناجاتها بحوارات داخلية يلتمس منها همساتها وهواجسها.

إنّ تكرار الضمير (أنا) يلفت النظر إلى أهمية المكرر وتوكيد المعنى المراد إيصاله في دلالة الاغتراب والإحساس بالضياع، الأمر الذي يستجلي الحالة الشعورية المطلوبة في الكثافة والتكثيف عبر الإلحاح على المعنى والدلالة، بتكرار حوّل المكرر إلى إيقاع خاص وبؤرة يتمركز ويجتمع فيها الشعور؛ ليكون فيها نقطة الارتكاز ذات الكثافة العالية قي شدّ القارئ ولفت انتباهه عبر بنية الانفصال المهيمنة على المتن الشعري، بإحساس للقلق والمعاناة ذات البعدين:

١- قلق الاغتراب: نتيجة الشعور بثقل التيه والوجع.

٢- هاجس الانفصال: نتيجة الشعور بالمحنة والاختناق.

هذان البعدان أسسا لموقف شعوري تبنته الذات بين الاتصال والانفصال الروحي.

والاغتراب الروحي هو تعبير عن الحالات الذاتية للذهن، وضروب التنافر، وعدم التناسب التي تتقرر على صعيد موضوعي (ريتشارد شاخت، ١٩٩٨، صفحة ٣٠٧)، طبقاً للعلاقة القائمة بين طرفي الانفصال، والتي ينبثق منها فاعل الاستيطان الوحش ـ رمز الاستغلال ـ والذي امتهن مصادرة المكان، تاركاً الروح تنتظر باستسلام قانع، إذ يقول:

ويطرق السكوت وحشٌ مانعٌ

ملوحاً بسوطه

يأخذه بتهمة التواطؤ المضر بالشعور

ينفى إلى مكتبةٍ مهجورةٍ

بتهمة التنفس العميق

وعندها

يختنقُ حد العيش

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، الصفحات ٤٣-٤٤)

يكشف هذا النص عن وجوه للمعاناة عبر ألفاظ وتراكيب تؤكد معنى الاغتراب الروحي، والتي غلب عليها همس النفس وغربة الأنا وقلق الروح، ذلك عندما تشعر الذات بالاغتراب في المجتمع الذي تنتمي إليه؛ ليسكنها التيه والقلق، ويقتل التفاعل وتنقلب الموازين عندما تجد الذات نفسها محاصرة بأفكار ومعتقدات تختلف عنها، فحينها يكتم الحرف وتستسلم لأفكار تفرض عليها؛ لأن لا قوة لديها على المواجهة في ظل قيود تمنع التنفس وصولاً إلى حد الاختناق.

هذه الأسطر الشعرية رسمت ظلالاً متكاملة تشي بنوع من التماسك الشعري الذي يوحي بالتشاؤم واليأس من خلال صور الفراغ الثقيلة (يطرق السكوت، الشعور المضمر، المكتبة المهجورة، تهمة التنفس، الاختناق حد العيش)، والتي رسمت صورة كلية لواقع مر تعيشه الروح على مضض، بسلسلة من الصور الميتافيزيقية في محاولة للترفع عن ألم الحقيقة من أجل بلوغ راحة الحلم.

والاغتراب الروحي هي تلك الحالة التي تشعر فيها الذات بانفصالها عن الظرف المثالي للحياة، لذا هي تبحث عن الانعتاق عن ظرفها إلى عالم آخر من صنعها، يمثل التناقض بين الذات والعالم الخارجي، وبين الواقع والخيال، وبين ما تملكه وتطمح إليه، ومن هنا يحصل الفقد الاغترابي للروح بشكله الوجودي أو الظرفي الطارئ، وهو بداية الانكسار للذات بغربتها الروحية.

يقول الشاعر:

حملوا مدائنهم تقطر غربة

يا بحر ليسوا هاربين، نشيدهم

لاذت بأرصفة الوجود عيونهم

تجري وعشب الذكريات وداعُ

وجع الأماني عندما تبتاعُ

تهفو فينبت في الوجوه ضياعُ

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ٣٨)

الاغتراب هنا روحي ميتافيزيقي يُفقد فيه أمران: الأول يتعلق بالوجود، والثاني بغاية الحياة؛ لأن الوجود والحياة أصبحا سلسلة من أعمال الشقاء والمأساة، التي تعبر عن تعارض يقابل المجموع في الإقبال على الحياة، فالغربة هنا أصبحت غربة روح يسكنها القلق والضياع من كل شيء، فشعور الحزن والكآبة هو اللون البارز في هذا المشهد الشعري، نجد ذلك في (وجع الأماني عندما تباع، مدائنهم تقطر غربة، لاذت بأرصفة الوجوه، في الوجوه ضياع)، فالصور التي وظفت في هذا النص جميعها تخدم فكرة واحدة، هي فكرة التعبير عن الإحساس بالغربة الروحية، عبر ذلك الدوران الذي ينتهي بالارتماء في حضن الضياع من خلال اغتيال الزمن بصور متداخلة ومتقابلة هي:

١- صورة المدن الغريبة.

٢- صورة الهروب وضياع الأماني.

٣- صورة الوجوه والعيون التائهة.

هذه الصور اجتمعت وتكاملت فيما بينها لتصور مأساة الروح وهي تبحر في بحر العدم والعبثية، بإطار من الاغتراب الذي شكل ثقل المعاناة.

ويعدُّ الاغتراب من أكثر الموضوعات التصاقاً بطبيعة الذات الإنسانية؛ لكنه يختلف من شخص إلى آخر؛ لأنه يتلوّن بطبيعة النفس وأعراف وقيم المجتمع العاطفية والنفسية. هذا نجده في نص آخر للقاصد يقول فيه:

وتعدُّ مأدبة الوعود ليأكل الآمال يأسُ

وسوارك العريان يبحث عن أكفٍ كيف يكسو

وأنا غريب في يديك وأنت زيتون وفأسُ

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، الصفحات ٩٠-٩١)

يعمل النص على تقنية ديمومة التوتر الناتجة من عدم القناعة بالواقع الراهن، بما يحمله من صور القلق والضياع (يأكل الآمال يأسُ، سوارك العريان يبحث عن أكفٍ، أنا غريب في يديك)، هذه الغربة قد أحسها الشاعر في عالم مليئ بالتناقضات، بنقطة تقاطع تمثل الصراع بين الأنا والآخر، الذي وسع من الهوة والابتعاد عن الجوهر الحقيقي، بالانغماس في التصنع الذي زاد من المعاناة ورسم مشهداً طافحاً بالاغتراب، بما يخفي ورائه من نفس منكسرة مثلت شعوراً أو فكراً اغترابياً، من خلال الخيوط الممسكة لبنية النص والتي شكلت بؤرة أساسية يتركز حولها الوصف وخلفية المشاهد في رسم وطأة اغتراب للروح؛ لكنه يحاول أن يتحامل تلك الوطأة في سبيل الوصول إلى كسر القيود، برد الفعل المعاكس (زيتون وفأس) الذي شكل نقطة الانسلاخ عن الزمن والوجود.

المحور الثالث: الاغتراب اللامعياري

إنّ انهيار منظومة القيم في مجتمع ما ينعكس على القيم الإيجابية؛ مما يولّد نوعاً من السلوكيات السلبية التي تنتج ما يسمى باللامعيارية في وضع الأسس والمعايير للفرد والمجتمع؛ لينتج عنها نوعاً من الاختلال في سلّم القواعد والقيم والمعايير التي تحكم المجتمع وتنظمه، الأمر الذي يؤدي إلى خلق فجوة من التفاوت والقصور في ظل غياب النسق القيمي وإخضاعه لضوابط مشوهة ومنحرفة عن الجانب المثالي؛ ليكون الاغتراب اللامعياري هو "شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع، أو عن السلطة الحاكمة" (سميرة سلامي، ٢٠٠٠، صفحة ١٥١)؛ لذا يصبح غير قادر على مسايرة هذا الواقع؛ لأنه يجد خللا فيه كبيراً، ويؤدي ذلك إلى أن يفقد الإنسان ذاته، أو أن يتمرد على تلك القيود ويحاول أن يحطمها. كما في نص للقاصد يقول فيه:

فأنقلب الترتيب في زمننا

ليبدأ العدُّ من الأخير

وها أنا أمامكم

الفائز الأول بالأخير

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ٨٩)

هذا النص يفوح باضطراب القيم واختلال الموازين التي انحرفت عن الخط السليم، إذ لم تعد قيمة الإنسان فيما يبذله من جهد وإنما صار ترتيب المقامات على وفق مقياس آخر هجين، فغربة اللامعيار هنا هي غربة قيم وأعراف

انقلبت إلى نقيضها بسبب فقدان التكافؤ الاجتماعي، والذي مثل مشكلة اجتماعية في اغتصاب الحقوق بأساليب ملتوية، الأمر الذي خلق هذا التفاوت بين نيل من لا يستحق وحرمان من يستحق نتيجة الخلل الاجتماعي، الذي لا ينال فيه الإنسان مكانته التي يستحقها. لذلك مثلت هذه الأسطر الشعرية انكساراً للمعايير التي ينتج عنها اغتراب الذات وهي في ثنايا مجتمعها؛ لأنها تتأرجح بين آمل الانتصار وأوجاع الهزيمة المفروضة بعيدا عن الكفاءة والمقدرة الحقيقية. هذا الانكسار في النفس وغربة الذات سببه اللامعيارية التي أفلتت الكفاءة الحقيقية وتمسكت بالمزيفة الطارئة.

ولابد من الإشارة إلى سببين جوهريين وراء الاغتراب: يتصل الأول بقضية الحرية وما يتعلق بها من تدخلات السلطة، ويتعلق الثاني بصدمة المثقف بسبب تعثر مشروعه النهضوي (محمد راضي جعفر، ١٩٩٩، صفحة ٢)؛ لذا انعكس الاغتراب على الشاعر المعاصر طردياً مع تعقيد الحياة وكثرة قيودها التي يحسها الشاعر بمستوى عالٍ من التوتر والانفعال، ليكتب القاصد أحدى نصوصه بطريقة اللامعيار فيقول:

لا أملك غيرك يا ورقة

لي في وجهك

كم من بيت

لكني عذراً يا ورقة

قضيت العمر بلا بيت

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ٥١)

هذا النص يمثل اغتراب إحباط وحرمان للقلم المثقف وأيضاً ضياع المعيارية وسوء التقدير في تقييم الكفاءات المثقفة؛ مما يولد حالة التمزق والضياع والإحساس بالاغتراب في مواجهة العالم الخارجي.

إنّ توظيف أداة الاستفهام " كم " جاء بحثاً عن الإجابة التي تشير إلى النفس المغتربة كي ينتبه الآخر لها؛ لكن الإجابة اللامعيارية كانت هي النتيجة (قصيت العمر بلا بيت)؛ لذا كان هذا التساؤل هو وليد الإحساس بالضياع؛ لكنه في الوقت ذاته نتاج لانسلاخ الذات عن واقعها المر، وهذا يتبين في توظيف حرفي النفي والاستدراك (لا، لكن)

كأدوات للتردد تفصل بين طلب وآخر في مواجهة إدراك عدم الجدوى، بإشارة ذكية تكشف زيف الواقع وانحرافه عن السياق الطبيعي.

كما أن تكرار كلمة " بيت " عبر توظيف تقنية الجناس التام: بيت (الشعر) X بيت (المأوى)

وأيضاً تقنية الطباق السلبي: بيت X لا بيت

قد أحدث موسيقى خاصة كان لها دور في بناء الصورة الشعرية وتوفير إيقاع موسيقي خاص يسهم في تغذية المحرك الخطابي للاغتراب، وكشف التفاوت بين الواقع المثالي والواقع الموجود فعلا.

والاغتراب اللامعياري هو نمط تجربة يعيشها الشاعر بوصفه شيئاً غريباً؛ لأنه لم يعد يعيش نفسه باعتباره مركز العالم ومحركاً لأفعاله، وإنما أفعاله ونتائجها أصبحت خاضعة لغيره، وهذا ما يحدث الانقسام أو الانفصال داخل الذات المبدعة عندما تحس بعدم فاعليتها ووزنها داخل الحياة. ويبلغ الاغتراب ذروته حين يقع القاصد في الوهم المر، ذلك الوهم وليد كابوس الاغتراب، إذ يقول:

قبلت فرحي مرة في العمر

حتى لا يموت الاشتياق

ودرست فلسفة الغبار

دخلت وجهي من جديد

لم أكترث للأمنيات

وإن غفت

بفم الوعود الغانيات

(حسين القاصد، ٢٠٠٤، صفحة ١١٨)

إذا تأملنا هذا النص وجدنا فيه مرارة حادة للاغتراب اللامعياري (قبلت فرحي مرة في العمر، حتى لا يموت الاشتياق، فلسفة الغبار، الوعود الغنيات)، هذه العوامل هي نسيج الغربة في نفس الشاعر ومنبع معاناته في اختلال مقاييس

الحياة الطبيعية؛ مما جعل الشاعر يحس بالانفصال عن حياته؛ ليعلن التمرد عليها ورفض ما فيها، هذا الرفض جعله ينفصل عن واقعه ليكون الإحباط واليأس منهجه فيه، فالصور تتداعى في هذا النص ولكنها تبدو مترابطة تبث إحساس واحد هو أيقونة القلق والاغتراب (قبلت روحي، درست فلسفة الغبار، لم أكترث للأمنيات)، والتي عمل فيها الشاعر عمل الرسام في وضع اللمسات الفنية التي تمنح الصورة الكلية وحدتها الشاملة، من مجموع أسطر شعرية ذات ظلال متكاملة توحي بمشاعر الغربة والاغتراب، والتي أصابت رؤيا النص الشعري من خلال ما يأتي:

جمود الآمال وتيبسها تصلب الأحلام وضياعها

الأمر الذي منح عنصر الحركة في تجسيد حالة الضياع من خلال صورة كلية ضمنت تأثيرها في نفس المتلقي.

وخلاصة القول أن الاغتراب هو شعور بعدم الانتماء نتيجة عدم القدرة على التكيف والانسجام؛ وذلك لانقلاب رؤى الواقع واختلالات نفسية وثقافية وفكرية تؤدي إلى عدم الشعور بالانتماء؛ لذا كانت جدلية الاغتراب تنطلق من عنصرين أساسيين هما: العقل، والعالم الحسي المحيط، هذان العنصران في صراع مستمر، وكلما زادت حدة الصراع بينهما زادت ظاهرت الاغتراب.

وظاهرة الاغتراب في مجموعة "حديقة الأجوبة " شكلت صوت احتجاج على الواقع المتناقض، وأيضاً مثلت طموحاً يتوق إلى سد الفجوات وهدم التناقض في الجانب الاجتماعي والقيمي؛ لذلك كانت دوافع الاغتراب عند حسين القاصد على نوعين:

الأول: يمثل الصراع النفسي القاسي الذي طغى على عالمه الداخلي.

الثاني: حالة التمزق والضياع الاجتماعي والقيمي.

هذان الدافعان يلتقيان في إطار يشكل الشعور بالتمزق وإدراك مأساوية الواقع؛ الأمر الذي جعل النص اشعري يمثل صوت احتجاج على الواقع، ويسعى إلى إزالة التناقض ورتق الفجوات بمقدرة شعرية تعبر عن عالم الاغتراب، وخاصة أن القاصد يعد من الشعراء المتمردين على النظم والقيود حتى أصبحت جزءاً من يومياته.

مصادر البحث ومراجعه:

حسين القاصد. (٢٠٠٤). حديقة الأجوبة. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

د.صالح زامل. (٢٠٠٣). تحوّل المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي (المجلد الأولى). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

دينكل ميشيل. (١٩٩٨٠). معجم علم الاجتماع. (د. إحسان محمد الحسن، المترجمون) بغداد: دار الرشيد للنشر.

ريتشارد شاخت. (١٩٩٨). الاغتراب (المجلد الأولى). (كامل حسين، المترجمون) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

سميرة سلامي. (٢٠٠٠). الاغتراب في الشعر العباسي، القرن الرابع الهجري (المجلد الأولى). دمشق: دار الينابيع.

عبد الإله الصائغ. (١٩٩٩). الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية. المركز الثقافي العربي.

علي وطفة. (أكتوبر ـ ديسمبر, ١٩٩٨). المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية. مجلة عالم الفكر.

غسان بديع. (١٩٩٧). النقد الموضوعاتي. مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، مج٦.

مجاهد عبد المنعم مجاهد. (د.ت). جدل الجمال والاغتراب (المجلد د.ط). القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

محمد راضي جعفر. (١٩٩٩). الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، مرحلة الرواد. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

نبيل رمزي إسكندر. (١٩٨٨). الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر. الإسكندرية: دار المعرفة.

Research sources and references:

Hussein Al-Qasid. (2004). Answers Garden. Damascus: Arab Writers Union Publications.

Dr. Saleh Zamel. (2003). The Transformation of the Example, a Study of the Phenomenon of Alienation in Al-Mutanabbi's Poetry (Volume One). Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing.

Dinkel Michel. (19980). Dictionary of sociology. (Dr. Ihsan Muhammad Al-Hassan, the translators) Baghdad: Dar Al-Rasheed for Publishing.

Richard Schacht. (1998). Alienation (Volume One). (Kamel Hussein, The Translators) Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing.

Samira Salami. (2000). Alienation in Abbasid poetry, fourth century AH (volume one). Damascus: Dar Al-Yanabi.'

Abdul Ilah Al-Sayegh. (1999). Modernist poetic discourse and the artistic image. Arab Cultural Center.

Ali Watfa. (October-December, 1998). Alienation aspects in the Arab personality. World of Thought Magazine.

Ghassan Badie. (1997). Thematic criticism. Journal of Signs in Criticism, Literary Club, Volume 6.

Mujahid Abdel Moneim Mujahid. (d.t.). The Beauty and Alienation Controversy (Vol. D.). Cairo: Dar Al-Thaqafa for Publishing and Distribution.

Muhammad Radi Jaafar. (1999). Alienation in contemporary Iraqi poetry, the pioneer stage. Damascus: Arab Writers Union Publications.

Nabil Ramzy Iskandar. (1988). Alienation and the crisis of contemporary man. Alexandria: Dar Al-Ma'rifa